بمن عداهم في العالم، جعلت المصورين الأوروبيين، من إداريين ومفوضين كولونياليين ورحالة مسافرين، ينظرون إلى الشعوب التي يصورونها ليس على أساس أنها غريبة فقط بل على أنها «دونية بالتأكيد» أيضاً. وهنا تستخدم المؤلفة الأدوات التحليلية القوية التي شحذها ادوارد سعيد في كتابه «الاستشراق» لتبين أن مفهوم «الشرقي»، كما تعبر عنه الصور التي التقطها أوروبيون، «ينتزع الموضوع وأفعاله من النطاق التاريخي ويجعله يبدو عجيباً لا يمكن تفسيره ومستعصياً على التأويل العقلاني».

وهناك، في حالة فلسطين، عنصر آخر هو ارتباطها في المخيلة الغربية، حينذاك، بالتوراة. ولذا كان بعض المصورين الاوروبيين يختارون أو يصطنعون في الاستديو مشاهد «توراتية أزلية» تعطي الانطباع بأن شيئاً لم يتغير منذ عهد التوراة. وسواء كان دافع ذلك رومانسية حنينية، أم اعتبارات تجارية محضة (بيع الصور بطاقات بريدية) فإن هؤلاء كانوا لا يرون حاجة إلى وضع تواريخ للصور؛ لأنها، في نهاية المطاف «غير مرتبطة بالزمان». أما تلك الصور التي التقطتها جمعيات ومؤسسات اوروبية، كانت مدفوعة بنوايا تحسين الأوضاع الصحية والتعليمية والمعيشية، فإنها تبدي نظرة أبوية فوقية إلى المجتمع «الجاهل والمتخلف».

ومن ناحية أخرى، فقد كانت تسود اوروبا، في القرن التاسع عشر، نزعة إلى تصنيف شعوب العالم إلى «أنواع» عرقية واثنية عريضة. وكانت أكثر «بطاقات التصنيف» انتشاراً في حالة فلسطين بطاقات البدوي والفلاح والمدني. ولا تعكس الصور التي التقطها بعض الاوروبيين هذا التصنيف فحسب، بل وتعكس أيضاً الصفات التي كانت مرتبطة في الذهن الاوروبي بكل صنف: البدوي «متوحش، قاس، حر» ولكنه لديه «احساس بالشرف»، أما الفلاح «فمتقادم وجاهل وساذج ومضطهد» وأحياناً بلا «إحساس بالشرف»، بينما المدني «مخادع ومخاتل ومتزلف».

ولكن، ماذا عن الصور التي التقطها فلسطينيون؟ من الواضح أنها صور أخذها أغنياء من سكان المدن، ولهذا السبب فإنها يجب أن تعامل بالحيطة هي الأخرى. فمثلاً هناك صورة في الكتاب أخذت في العشرينات لعائلة فلسطينية من الطبقة الوسطى. ترتدي ألبسة «تقليدية» فلاحية في حفلة (الغرابة مرة أخرى!). وهناك صورة أخرى (١٩٢٢) تضم عدداً من العائلات يلبس أفرادها جميعاً الزي الأوروبي، إلا امرأة واحدة تلبس ثوباً فلاحياً، وتشير المؤلفة إلى أن أسماء الجميع مكتوبة على قفا الصورة، إلا هذه المرأة، فقد أشير إليها على أنها «فلاحة» فحسب! وهناك أيضاً مجموعة من الصور التقطها، في الثلاثينات، فلسطيني ملحق بمدرسة خضوري الزراعية في عدد من القرى الفلسطينية، تبرز بوضوح تشبع المصور بالأفكار الأبوية الإحسانية السائدة بين الكولونياليين (وذلك أمر لم يفت المؤلفة الاشارة إليه).

هكذا يتبين لنا أن المؤلفة اختارت المشي في حقل مليء بالألغام، فكان الكتاب دليلاً على أنها اجتازت هذا الحقل برشاقة وخفة تحسد عليهما. فقد استطاعت أن تعيد للصور حياتها وبعدها الإنساني؛ وذلك بالتعليق النفاذ الذي يلفت ليس إلى ما تبرزه الصورة المعنية وتوضحه فحسب، بل إلى ما تخفيه وتشوهه أيضاً. كذلك كان تصنيف الصور وتقسيمها على فصول كتبت بعناية ناجحة أيضاً، فهناك فصل عن الأرض وحياة القرية يضم صوراً للعمل الزراعي والحياة الاجتماعية توضح أنماط ملكية الأرض. وثان يتعرض بخاصة لعلاقة الحكومة بالفلاح والعمل في تجارة البرتقال والهجرة من الريف. أما الفصل الثالث فصغير؛ وهو يعرض للبدو، ويصف الفصل الرابع التنقل بين المدينة والقرية وبين المدن المختلفة، ويضم صوراً لعمل القرويين في المدينة: في الموانىء والبناء وبيع المنتجات الزراعية. وفي الفصل الخامس، عرض للحياة الاقتصادية في المدن يتتبع بالصور نمو المدينة والحرف السائدة. كالخزف والزجاج والنسيج والدباغة، وبعض الصناعات مثل الصابون والكبريت والسجاير والمطاحن، كما يصور هذا الفصل الحياة التجارية اليومية والحياة الاجتماعية. ويضم الفصل السادس صوراً تبين التغييرات في أسلوب الحياة في المدينة، والاحتفالات الدينية الإسلامية والمسيحية. أما الفصل السابع والأخير، فيتركز على الحياة السياسية ويضم صوراً تتعلق بالحرب العالمية الأولى والانتداب البريطاني، مثل صور المظاهرات في يافا، والقدس وصور ثوار عام ١٩٣٦، وكذلك صوراً للعقوبات الجماعية التي كانت توقعها حكومة الانتداب.